صفحات من «كرنفال البطاطا» لمحمد أبو معتوق

هذه صفحات من قصة قصيرة منع توزيع عدد لوتس التي نشرتْ فيه بسببها (راجع شهادة أبو معتوق السابقة). وقد فازت بالجائزة الأولى في مسابقة المجلة المذكورة.

[...]

الحجز السياسيّ لا يَخْضع للتعقيدات التي يَخْضع لها محتجزو جرائم الحقّ العام. وبما أنّ السجن المركزيّ مليان على آخره، فقد اضطرّت الحكومة لإشغال الغرف الضيّقة في المخافر. والإنسان المحتجز والممنوع من الحريّة يضيق بروحه، فكيف لا يضيق بسواه، خاصة وأنّ الشباب المحتجزين أصحاب ملل ونحل وأفكار متضاربة لا يَجْمع بينها سوى ما يَجْمع بين الحكومة والديموقراطيّة؟!

في أول الحجز انصرف محيي الدين وقمر الدين البركات، المتشدّدان الأصوليّان، للصلوات، فعسى ـ قال محيي الدين لأخيه قمر الدين ـ تخرّ صاعقةٌ من السماء على باب السجن أو رئيس المخفر فينشقّ الجدارُ ويأتي الفرج! وبعد أن انتهيا معًا من الصلوات والتسليم غادرهما الإحساسُ بالسلام والأمن، وشعرا نحو أقرانهم بالانتباه والمزاورة. فلقد أَوقفت الصلواتُ والدعواتُ سيولَ الكلام أمدًا طويلاً، والسجناء دون كلام أكثرُ وحشةً منهم من دون طعام. لذلك بدأ كل واحد منهم يرتِّب لغيره هجومًا يعينه على الحياة والاحتمال: فهو إنْ لم يَنْجح في كسب جولة لصالحه فهو ضامنٌ الخروجَ بالكلام من صمته وعزلته.

ـ تقبّل اللّه، قال الحاج ديبو المكانسي.

ـ ولماذا لم تصلِّ معنا يا حاج؟ ردّ محيي الدين.

ـ الدمّل يا ولدي يَمْنعني من السجود والقيام.

ـ ولكنّه لم يَمْنعك عندما أوصلتَ الحكومةَ إلى بيوتنا؟

ـ لذلك أكرمتْني الحكومةُ ووضعتني في الحجز.

ـ هذا أمر آخر يا حاج، فلا تَخْلط عبّاسًا بدبّاس.

ـ اتركْني يا ولدي في حالي، تَكْفيني الحكومة وهذا الدمّل.

ـ ومن المنتقم الجبّار من يكفيك، تابع قمر الدين البركات الكلام.

ـ استغفر اللّه العظيم على هذه الورطة.

ـ اتركا الحاج في حاله. ربما قال في نفسه: السجن للرجال، قال زاهر الهبراوي ممازحًا.

ـ ما قلتُ في نفسي مثل هذا الكلام، أجاب الحاج. ولكن عسى أن يَجْعلكم السجن تحبُّون الحارة أكثر.

ـ تريد أن تعلّمنا كيف نحبّ الحارة يا حاج؟ صاح قمر الدين البركات.

هكذا، دون مقدّمات ولا بطيخ، نَفرت الدموعُ من عيني الحاج وتهاطلتْ على وجهه وذقنه وهو في حالة اندهاش من أفعال عينيْه الخائنتَيْن. فانتبه الجميع إلى الحالة الطارئة وانكمشتْ وجوهُهم وأعينُهم وصمتوا صمتًا جارحًا.

ـ لا تؤاخذوني، قال الحاج. هذا الدمّل الملعون يضغط على روحي، ولم أرغب أن أموت أمام الحاجة أمّ الأولاد.

ـ لا تشغلْ بالك يا حاج، ردّ عادل الشرم. أنتَ مثل والدنا.

ثم ساد صمت، قاطعه أحدُ رجال الشرطة من القائمين على حراسة غرفة الحجز وتأمين الخدمات للسجناء، ففتح الباب وأدْخل سطلاً مملوءًا بالبطاطا المسلوقة. وعندما طالب السجناءُ بالملح والشاي، قال لهم الحارس: «في الغد سَأُحْضر لكم الملحَ من بيتي.» فاطمأنّ الجميع إلى هذا الجواب، وحمل كل واحد منهم حبّةً من البطاطا، وضربها على الباب والجدار، فانهرستْ وتساقطتْ على الأرض وتركتْ مكان الضربة علامةً رطبة. ثم أصاب الجميعَ حنينٌ إلى العمل السياسيّ والتظاهرات، فشنّوا حملةً من الهتافات ضدّ الحكومة وإدارة السجن، وهَتفوا بسقوط البطاطا والملح والشاي، وظلّوا على هذه الحال حتى أعياهم الصراخ. وعندما لم يلتفتْ إليهم أحد تهالكوا على الأرض قرب البطاطا المهروسة من جرّاء الغضب السياسيّ، فلمّوها وحملوها وجلسوا يأكلونها بمحبة وامتنان، والحاج ديبو المكانسي يَنْظر إليهم من وراء دمّله ويشاركهم الغصّات. وفجأةً، وبينما كان محيي الدين البركات يَقْضم ويبلع، أزاح عن فمه نصفَ حبة بطاطا ونهض وقال: «اللّهم اشهدْ بأنّني قد نَذَرتُ لك صومًا، فلن آكل بعد اليوم ممّا تقدمه الحكومةُ الكافرة، ولن أكلّم من الملحدين أنسيّاً.» ثم تبعه أخوه قمر الدين في إعلان الإضراب عن الطعام. فتفاقمت الأوضاعُ، وازداد الوضعُ السياسيُّ في القاووش اضطرابًا وتأزُّمًا. ووجدتْ بقيةُ الفصائل السياسيّة في موقف آل البركات ما يحرّضها على الأكل، فانهالت على البطاطا الساخنة قضمًا وبلعًا، حتى ابتلت من أفرادها العروق، وولدا البركات يَنْظران إلى السطول التي تَدْخل وتَخْرج وقد جفّت منهم الأطرافُ وتبللت المآقي وهم يبسلمون ويحوقلون ويردّدون: «اللّهم ابتلَيْتنا، فلا تعرِّضْنا.»

في اليوم الثالث على الصوم، وبعد ثلاثة سطول من البطاطا ومن القَضْم والبلع من المعارضة اللادينيّة، انقضّ محيي الدين البركات فجأةً على سطل البطاطا فتبعه أخوه قمر الدين دون سؤال ولا كلام، وظلاّ في حالة قضم والتهام حتّى شبعا، فحمدا اللّه على ما أعطى وقَسَم.

ـ لو أنّكما بقيتما يومين آخرين في حالة إضراب عن الطعام!

ـ تريدنا أن نموت من الجوع، يا منظوم.

ـ أريد لكما جنّةَ الخلد. وهي أفضل من جنّة البطاطا في الحجز. فلماذا عدتما عن الإضراب؟ تابع زاهر الهبراوي.

ـ عدنا لأنّنا كنّا على خطإ. الإضراب عن الطعام يُضْعف الجسم وقد يؤدّي إلى الموت، والموت في مثل هذه الحالة مثل الانتحار: معصية وكفر. وإنّني أسأل اللّه العفو والمغفرة لي ولكم.

ـ لم أكن أعرف أنّ البطاطا تعلّم الإنسانَ الفقهَ، قال فاضل الهبراوي من حزب القلعة الحكوميّ ممازحًا.

ـ أعتقد أنّ الفقه دخل معهما إلى الحجز قبل دخول سطول البطاطا، ردّ رضوان الدوارة بجديّة مفتعلة.

وانفجر القاووش بالضحكات. الإلحاح على ذِكْر البطاطا والانفجار المتناوب بالضحك والغضب بين المحتجزين يَدْفع الحاج ديبو المكانسي إلى التكوّم على دمّله وروحه، مثلما تتكوّم الحاملُ على جنينها في شهرها الأخير، أو مثلما تكوّم المضربان عن الطعام على سطل البطاطا. فلقد تورّم الدمّل الذي يغلق حالبيْه وأصبح يَفْصل بشساعة بين رأسه وأسفله. وتحوّل جلدُه من الصفرة اللامعة إلى الزرقة الخانقة، فعضّ على لسانه حتى أدماه وصار يَرْطم رأسَه بالجدار رطماتٍ متناظرةً من مقام الهزج وهو يغنّي في أنين مكتوم: «ويا أمي لماذا أنجبتني؟»

في اليوم الخامس، دخلت البطاطا إلى الزنزانة كأنّها من جملة السجناء، فأحسّ المحتجزون نحوها بالتضامن، بينما كان رجالُ الشرطة وإدارةِ السجن يقتسمون الطعامَ الذي أحضره أقرباءُ المحتجزين وأهلوهم ويكوِّمُون الحصصَ أمامهم ويبدأون في التهامها وهم يؤكّدون أنّ حَلَب لا تضاهيها أيّةُ مدينة في صنع الطعام الطيّب وفي محبّة الأولاد.

تابع رئيسُ المخفر الكلام: «مثل هذا الطعام الطيّب يشجّع الناس على معارضة الدولة والدخول إلى السجون، وعلينا أن نَمْنع المعارضةَ من تحقيق أهدافها.» قال ذلك بنصف فمه، في وقت كان النصف الثاني يعجن نصفَ قرص من الكبة المقليّة. «يَعْني واللّه لو ضمنتْ لي الدولة أن آكل مثل هذا الطعام لدخلتُ السجنَ برضاي.» وأدخل نصفَ القرص الثاني الباقي في يده في فمه ولحس أصابعه.

ـ كلامك يا سيدي يساوي ثقله ذهبًا، قال رئيس الدوريّة الرقيب جمعة (الذي ذهب إلى بيوت الموقوفين بيتًا بيتًا وأحضرهم عدّاً ونقدًا). البطاطا ستعلّمهم ما يَعْجز عنه الاعتقالُ والحجز.

ـ وماذا ستعلمهم البطاطا؟ تساءل رئيسُ المخفر مستفهمًا.

ـ بعد أيام من أكل البطاطا يا سيدي، ستتصمّغ أمعاؤهم، ويصابون بالكتام، ويَعْجزون عن الخروج، فتتصدّع رؤوسُهم، وتتبلبل أفكارُهم. ويشكّلون حزبًا لمعارضة البطاطا وتأييد الحكومة، وتفضل يا سيدي هذه المحشية.

خلال هذا الحوار الهادئ الدسم، وصلتْ أصواتُ الشتائم والضربات العنيفة من غرفة الحجز الوحيدة، فقطعتْ على المتحاورين الطعامَ والكلامَ، وبدأوا بالإصغاء والانتباه. حاول الرقيب جمعة النهوض ليتبيّن ما جرى، فطلب منه رئيسُ المخفر تجاهُلَ الأمر ومتابعةَ الأكل والحوار.

ـ دعهم لما أرادوا، قال رئيس المخفر. إنّهم يعاقِبون بعضَهم. أحزابُهم متصارعة، وأفكارُهم متضاربة، ومن الضروريّ أن يحرّكوا أذرعَهم وأجسادَهم بالضرب حتى تتحرّك البطاطا في أمعائهم.

الذي جرى وصار في قاووش الحجز كان ضروريّاً. فبعد أن التهم المحتجزون الكرام سطلاً من البطاطا المسلوقة، وبينما هم في حالة تقشير وتفكير، انتابهم الحنين إلى الكلام والحوار، فتبادلوا الكلمات واللكمات. وكانت البداية على هذا النحو:

ـ لا بدّ لنا من الوحدة.

ـ الذي يَنْقصنا التوحيدُ والسيرُ على طريق السَّلَف الصالح.

ـ الوحدة عمل خطر، ويجب أن نَحْذر منها.

ـ أين تَكْمن خطورتها؟

ـ الوحدة توقظ النوايا الخبيثة للبرجوازيّة العفنة.

ـ أيّة بورجوازية وهي لم تولد بعد؟

ـ ستولد في أحشاء الوحدة.

ـ أنتم عملاء لموسكو.

ـ أنتم عملاء لأميركا.

فيا لهم من أولاد، ويا له من حوار، كل واحد في الحجز يُنْجز ولادةً تخصّه وموتًا يخصّ سواه. والحاج ديبو داخلٌ في التذكّر والمتابعة، ورأسُه إلى الجدار، وعند جالبه زوابعُ من الحنين والضرب الممضّ. لذلك عندما تَرجُّه الصرخاتُ، يتكوّم على نفسه محاولاً أن يُلْصق ركبتيْه بذقنه مثلَ جنين، فيحول الدمّل بينه وبين روحه. عندها يركض وحيدًا إلى فلاة طفولته، وحيدًا، حتى يتلاشى ويذوب. لذا تداهمه أمُّه وذكرياتُ الحارة أقسى من مداهمات الحكومة، وأمرُّ وأعتى من حوارات أولاد الحارة الذين لا يَعْترفون بأبوّته.

ويا بلدًا من الحارات العاتبة، لماذا حصل ما حصل؟

بعد فترة من الصمت والمزاورة، حاول أسعد الهبراوي أن يعيد الأطراف إلى الحوار، فقال:

ـ الوحدة التي وضعها حزبُنا تلبّي كلَّ الحاجات ولها شروط.

ـ تفضّلْ وحدِّثْنا عن الشروط.

ـ هذه الوحدة يجب أن تكون ضدّ الإقطاع والبورجوازيّة والرجعيّة والمرض والتخلّف والجهل والتبعيّة والبيروقراطيّة والاستبداد والأنظمة الملكيّة.

ـ يعني بهذه الشروط تقدّمون خدمةً للاستعمار العالميّ والإمبرياليّة.

ـ لماذا؟

ـ لأنّ هذه الوحدة لا يُمْكن أن تتمّ.

ـ لماذا لا يُمْكن؟

ـ لأنّه لم يبقَ أحد إلاّ ووضعتموه في قائمة الأعداء.

ـ يعني؟

ـ يَعْني مع الحكومة الحقّ في اعتقالكم، لأنّكم أعداء للوحدة ولستم دعاة لها.

ـ أنت غبي.

ـ أنت حمار.

ـ أنتم متآمرون.

وتدخلت البطاطا في الحوار، فانهرستْ عدّةُ حبّات منها على عدد من الوجوه. ثم تدخّلت القبضات، وانهال كلٌّ واحد على الآخر بيديْه ورجليْه يريد الإجهازَ عليه، وتعالى الصراخُ والصفعاتُ والرفساتُ. كان التنسيق بين الفِرَق السياسيّة المتصارعة واضحًا، لذلك برز العمل العائليّ المشترك كمحتوى عميق للوعي السياسيّ.

كان الشقيقان المتحزّبان يتّفقان معًا في الكلام والضربات. فبعد أن أعيا الجميعَ ما لاقوه من بعضهم من هجوم ونزق، ترنّحوا وتهلّوا على حوافي الجدران والأرض. ولحظتَها دوّى الانفجارُ العظيم.

الحاج ديبو المكانسي، الذي احتمل دمّله واحتمله الدمّل، لم يتمكّن في ظلّ الحجز والبطاطا والحوارات الساخنة من متابعة الاحتمال، فسعى كلٌّ منهما للإطاحة بصاحبه. وحصل الانفجارُ، وامتلأ المخفر بالدويّ، فاندهش رئيسُ المخفر واندهشت اللقمةُ في فمه، فشرق واحتقن وجحظتْ عيناه، فعاجله حضرة الرقيب بضربتين على ظهره، تقبّلهما رئيسُ المخفر بحسن نيّة، ثم تابع البلع ومسح عينيه وتساءل عن مصدر الانفجار القريب، ونظر تحت طاولته بعفويّة بالغة. ثم رفع رأسَه، فتقاطعتْ أفكاره ونظراته مع نظرات الرقيب، فخرجتْ من فميهما برهةَ التقاطع كلمةٌ واحدةٌ: «إنّه الدمّل.» وهرعا معًا إلى غرفة الحجز.

حاولوا أن تتخيّلوا، بالتصوير السينمائيّ البطيء، كيف يَنْفجر الدمّلُ الكبيرُ المملوءُ بالكلام والأسى والقيح. لقد حصل الانفجارُ بقوّة وبطريقة مفاجئة، فتطايرت الأشياءُ اللزجة والعتابُ إلى الوجوه، وتوقف المتعاركون عن المتابعة، والتفتوا إلى جهة الصوت دون أن يلتفتوا إلى ما أصاب وجوههم.

كان الحاج ديبو المكانسي يَنْتظر حدوث الانفجار ويستعجله، وقد أَسْهم الشبابُ العقائديُّون بحواراتهم المتواترة ومعاركهم الشّابّة في تسريع وتيرة الغليان الذي يَنْتاب الدمَّلَ الكبيرَ وشيخَ الحارة الجليل. فعندما حصل الانفجار غادرت المخاوفُ وجهَ الرجل المصاب، وتنفّس نفسين عميقيْن ونظر بمحبّة إلى الأولاد المتصارعين، وقال جملته الأخيرة: «ليتني أَسْتطيع أن أَلْعب معكم يا أولاد.» ثم أغفى دون سجن، ودون حارة، ودون زوجة خائفة.

عندها انتبه الأولاد إلى أجسادهم المشدودة وقبضاتهم المغلقة، وداخَلَهُمْ سلامٌ غريب، فتذكّروا الرجل وكلامَه ودمّلَه، وتذكروا الحارةَ والأهل، فتراجعتْ أجسادُهم إلى الجدران، وانسدلتْ على الأرض مثلَ راياتٍ خائبة، وتساقطتْ رؤوسُهم بين ركبهم من وطأة البكاء العميق.

وكان في السجن حزن، وفي الحارة، وعلى الناس.

عندما وصل الخبر إلى الحارة، نهض الجميعُ في هيئة رجل واحد. وعندما وصلوا إلى المخفر قيل لهم إنّ الجثة في الطبابة الشرعيّة، فهُرعت الحشودُ إلى هناك. وفي الطبابة أخبرهم الطبيب المناوب أنّ الجثّة أُرسلتْ إلى مشفى الرازي بسبب تعطّل البرّاد ونفاد الجليد، وفي مشفى الرازي ستُحفظ وسيستفاد منها في الدروس التطبيقيّة لتلاميذ كليّة الطب. وعندما تساءل الجميع «ما العمل؟» قال الطبيب الشرعيّ: «سأعطيكم ورقةً لاستلام الجثّة، وإنْ كنتُ أفضّل أن تتبرعوا بها لإدارة المستشفى من أجل تطوير البحث العلميّ.» فصرخ به أحدُ الموجودين: «بلا بحث علميّ بلا خ... نريد شيخ الحارة لندفنه في تربة الحارة.»

زأر الجميع: «حارتنا لا تنام بدون أولادها.» وانتزعوا الورقة من يده المستغربة، وتراكضوا عاتبين [...]

حلب